

جزء من آخر لقاء مع محمد ديب*

تر: أ.عزيز نعمان

جامعة تيزي وزو

س: تبدو رواياتكم الأخيرة منطلقا لتفكير حول الاغتراب. لكن يُنظر إليكم أيضا على أنكم عدتم إلى كتابة أكثر عمقا.

ج: إن الفعل هو ما يكتسي أولوية ونحن شبان، لكن مع تقدم السن يتم استبداله بالتفكير. فالكاتب الشاب نسبيا يطرح أسئلة مرتبطة بالجمال والفعالية، لكن مع تقدم السن نطرح باستمرار مسائل أخلاقية، ذلك أن في الحياة مراحل تجعلنا ننقل من طور إلى آخر.

س: مررتم أنتم أيضا بتلك المراحل. أحدثتم لمرات عديدة قطائع في أعمالكم، وعاودتم بالأحرى الكرة من ثلاثية إلى أخرى؟

ج: عموما لا وجود لقطيعة عند إنسان ما، اللهم إلا إذا تغير الشخص تغيرا تاما. عليّ أن أضيف، فيما يخصني، بأنني اعتقدت ومازلت أعتقد، طالما كانت الجزائر مستعمرة، بأنه ينبغي على الكاتب أن يؤدي واجبه تجاه بلده، أصالة عن نفسه، بعرض مطلب بلده وشعبه. إضافة إلى توفر شيء خاص في تلك الفترة، إذ لم يكن للجزائر وجود في أدب الجزائريين ولم يكن لها حق امتلاك اسم بعد، حتى وإن وُجد من الكتاب الفرنسيين من كتب بصفة عابرة على الجزائر من أمثال جيد (Gide) أو آخرين؛ وكان ثمة أيضا روائيون فرنسيون بأعداد كبيرة ممن انتموا إلى فترة الاحتلال. كانت عند هؤلاء نظرة خاصة عن الجزائر، وهي النظرة التي لم تكن تعني شيئا بالنسبة لجزائريين من أمثالي، ولم تكن مطابقة للواقع. ولأنني كنت جزائريا فقد أحسست بحاجة إلى وصف ذلك الواقع وذكره، والواجب هو من أملى عليّ ذلك. واجب منح اسم للجزائر والإشارة إليها. وقد كان ذلك الواجب صورة من صور الإيمان، فيكفي وصف الناس واستعراض بناهم الجسمية وكذا سلوكهم والطبيعة المحيطة بهم. كان ذلك كافيا وقتذاك لوصف مشهد جزائري، ومن ثم تجسيد صورة الإيمان وجعل الجزائر تمتلك وجودا أدبيا.

س: أتكون الكتابة بالنسبة إليكم عملية فيزيائية؟

ج: لا اعتقد أن تكون التكلفة هامة. فالعمل الفكري لا يتعب مثلما يتعب العمل العضلي. لكن ثمة بالمقابل، وبكل تأكيد، تكاليف ذهنية. ويبدو لي من جهة أخرى أنه كلما عملنا أكثر، وأقدمنا على رياضة فكرية، كلما كان الفكر أكثر قابلية للعمل. فالتوقعات هي بالأحرى ما يثقل.

س: بما تشعرون في لحظة كتابة رواية ؟

ج: ينتابني إحساس بأنني لست من يكتب ويبدع، وبأن الأشياء تعرض نفسها بنفسها، وبأنه ما عليّ سوى الاستماع والنظر. وفيما يخص الحوارات والخطابات فلست بحاجة حتى لأن أبحث عنها. فأنا أسمعها وأكتبها. تفتّنت إلى هذه الحقيقة منذ زمن بعيد، وهو القسم الذي لا يمسه كثير تصحيح في مخطوطاتي. فالحوارات تظل غير قابلة للتغيير في حالتها الأولى تماما كما هو حال شخص آخرى تظالبي، وهي تتكلم في حضوري، بتدوين كلامها مع الحفاظ على ما كانت عليه.

س: ما طبيعة العلاقة التي تقيمونها مع الجزائر اليوم؟

ج: علاقتي مع الجزائر هي علاقات جزائري أو مواطن إزاء وطنه، إزاء الوسط الذي يعرفه. فالعلاقات إذن علاقات جد طبيعية.

س: كتبت صحيفة لوموند (Le Monde) لـ 20 ماي 1994 في ملحقها الخاص

بالكتّاب: "يُسمع ديب في رواياته صوتا أكثر عمقا في وقت تبتعد فيه الجزائر نوعا ما". إلى ما تعود تلك التغيرات الأدبية ؟

ج: كما سبق وأن شرحت، فإن تلك التغيرات هي بالفعل تعميق لعملية التفكير، فبإمكان أي كاتب أن يخوض في تلك المسائل التي لم يتعود أن يخوض فيها وهو شاب. مسائل مرتبطة بالأخلاق والجانب الروحي. فهو، على أي حال، تطور يحدث عند كل كاتب، فالأمر لا يخصني وحدي. فقد يكون عمري الطويل عاملا في إظهار تلك التغيرات. تقع تغييرات على مستوى التوجه أو الهدف خلال عملية تطور طبيعية.

س: أمازال سكان الدار الكبيرة وعمر الصغير ولالا عيني وحמיד سراج عالقين في ذاكرتكم ؟

نعم بالطبع، لكن المرحلة في الحقيقة كانت مرحلة أخرى. فلم يعد الجزائريون كذلك. لم يعد الجزائريون كجزائريي مرحلة الدار الكبيرة. إنها كتب تنتمي إلى ماضي الجزائر وتاريخها، إنه خط آخر.

س: لكن عمر، لالا عيني وحמיד سراج مازالوا دائما أحياء؟

ج: نعم، بكل تأكيد! في الحقيقة استعنت - وإن كانت هذه الكلمة غير موفقة الاستعمال - في كل شخصية من تلك الشخصيات بنماذج متعددة. غير أنهم كانوا أناسا أعرفهم على أقل تقدير وقد وازبت على ملاقاتهم أو الالتقاء بهم. إن أخذ الملامح والخصوصيات الجسمية لعدة شخوص وتكوين شخصية منها هو ما يشكل جزءا من عمل كاتب ما.

س: ما تزالون، منذ ما يربو عن عشر سنوات، تتابعون تجربة اللقاء الغرامي. ففي رواياتكم الأخيرة ودواوين شعركم تُظهرون لنا ديبا مغرما بالمرأة التي يتخذها دليلا له. هل وأنتم في سن الرابعة والسبعين مازلتُم مغرمين؟

ج: لا يستدعي الأمر طرح هذا السؤال. فجوهر المسألة لا يكمن، في حقيقة الأمر، في معالجة عاطفة الحب ما دام الشعور بالحب داخلا في الطبيعة الإنسانية. إن ما كان أساسيا في عملي، بالنسبة إليّ، هو إعطاء مكانة للمرأة في كتبي. أما أن تكون تلك المرأة جزائرية، كما كان ذلك حال أعمال كثيرة لي، فإن ذلك جاء بصفة تلقائية، فطالما عاشت المرأة مهمشة في مجتمعنا وهي مسألة أخرى دفعتني للحديث عنها، فكنت أرغب دوما في أن يكون لها حق تتمتع به كما هو شأن الجزائر. ذلك ما حرّكني.

لست بصدد الحديث عن الأدب العربي ما دام ذلك الأدب زاخرا، بكل تأكيد، بحكايات الغرام. فقد ابتدع العرب نموذج الزوج الغرامي، أو بالأحرى نموذجا أصليا أبديا، على نحو نموذج مجنون ليلي. فحتى من لا يعرف شيئا عن الأدب العربي يعرف وجود ذلك الزوج. إن ما أردت الحديث عنه هي الجزائر، فقد دخل هذا البلد مع الاحتلال وحتى قبله في مرحلة

أصفها بمرحلة "القسوة الفكرية"، وهي القسوة التي بلغت حد ممارسة تصلب على المجتمع وهو ما ولّد بدوره شبه شلل في المشاعر. لقد صارت كلمة "حب" كلمة "طابوها" في المجتمع الجزائري: فلم يكن يُنطق بتلك الكلمة في المحادثات العائلية لا سيما بين الأفراد الأقارب كالزوج مثلاً. أن نتغنى بالحب في الموسيقى الأندلسية أو في أي صنف من أصناف الغناء وأن نتلذذ بذلك فذلك شيء. لكن أن يقال "أحبك" للزوجة أو الزوج فذلك شيء آخر. ما دامت كلمة حب لا ينطق بها فإني لا أنطق بها، فيما يخصني، وفاءاً لصورة المجتمع الجزائري. لكني أشعر بها الغير بالمقابل لأن في الحياة كما في الأدب عدة وسائل لإشعار أحد بأننا نحبه. أشعر بها الغير كي نعي هذا الإحساس شيئاً فشيئاً، ولأنه ينبغي أن تقال يوماً.

س: منذ ما يقارب أربع سنوات جمعكم لقاء مع الصحفي والكاتب الراحل طاهر جاووت. ما الانطباع الذي تركه فيكم ؟

ج: التقينا، في حقيقة الأمر، ثلاث مرات لا أكثر. كان ذلك كافياً لأن أقدر الإنسان والكاتب في الوقت ذاته. يحدث وأن يكون الكاتب ملفتاً للانتباه وأن يكون الإنسان مخيباً للظن، وإن كان عمله هاماً. لم يكن ذلك حال جاووت. بالعكس، فقد رأيت فيه إنساناً كرامة وحرصاً، كان يحسن الاستماع ولم يكن يفرض نفسه، حتى وإن كان في حضرة أناس جد عاديين ومتوسطين على الصعيد الفكري. لقد لاحظت خلال ذلك اللقاء الأدبي المقام في سانت دونيه (Saint-Denis) - منذ سنوات خلت - الطريقة الرزينة والموزونة التي كان يتحدث بها. لقد كان إنساناً نحس بما في داخله من قوة فكرية وذهنية على حد سواء. لم يكن يظهر أبداً ملامح شخصية فريدة من نوعها. دفع حياته ثمناً لذلك.

إحالة:

* آخر مقابلة لمحمد ديب جمعته بمحمد الزاوي عام 1998، وقد تم نشرها في كتاب "الجزائر، أصوات في الزوابع" (L'Algérie, des voix dans la tourmente) " عن دار (Le temps des cerises) للنشر.

استقينا هذا النص (وهو مقتطف صغير من النص الكامل للقاء) من جريدة "Le Matin". ينظر:

[La dernière interview de Dib, in Le Matin, n° 3412, 08 mai 2003, p. 06]